1

الفصل الأول

تاريخ الصين السياسي والحضاري القديم

في عصر الأسر الحاكمة

■ مقدمة

■ الموقع الجغرافي

■ المعتقدات الدينية

■ الموقع الجغرافي للصين وأثره في نشوء الحضارة الصينية وإنتشارها

1- امبراطورية التانغ

2- حقبة السلالات الخمسة

3- امبراطورية الخطاي

4- دولة هسي هسيا

5- دولة الكين

6- امبراطورية سونغ الشمالية

7- امبراطورية سونغ الجنوبية

8- دولة المغول

9- امبراطورية منغ

10- امبراطورية المانشو

مقدمة:

شكل تاريخ بلاد الصين، حلقة مهمة من حلقات التاريخ العالمي، وذلك لارتباط تاريخ الصين بتاريخ بقية دول العالم المعروف في العصور الوسطى، فكلما كانت الصلات التجارية بين الصين ومختلف بلدان العالم قوية زاد ذلك من قوة بلاد الصين الاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم السياسية والعسكرية، ونظراً لاعتماد بلاد الصين بالدرجة الأساس على التجارة في ذلك الوقت، لتوفير ما تحتاجه بلادها من سلع كان يجلبها التجار من مختلف البلدان، ويأخذون ما يفيض من سلع ومنتجات لديها، وفي كلتا الحالتين كانت امبراطورية الصين، هي الرابح الأساس عبر هذه التجارة، وذلك بفرض الضرائب والرسوم عليها، وكانت ضرائب بعض السلع تصل إلى 50% من قيمة السلعة المرسمة، وكل دولة أو امبراطورية كانت تحكم بلاد الصين، كانت تشجع التجارة، لأنها السوق الأعظم لديها، من ناحية توفير السلع لها والتصرف بالبضائع الزائدة عن طريق التجارة، فضلاً عن الرسوم التي تجبى من كلتا التجارتين الخارجية والداخلية.

ولو نظرنا إلى سياسة دول الصين في العصور الوسطى، لوجدناها سياسة متأنية، تهدف إلى الحفاظ على وحدة بلاد الصين، بشتى الطرق والوسائل، وهذا حق طبيعي لكل الدول، لكنها كانت في معظم الأوقات تنأى بنفسها عن الخلافات السياسية، التي تحدث في الدول القريبة أو البعيدة منها، على اعتبار أنها شأن داخلي ليس لها فيه ناقة أو جمل، ولهذا حافظت معظم بلدان العالم في ذلك الوقت بحسن علاقاتها مع مختلف الدول المجاورة لها ومنها بلاد الصين، وما يهمها من تلك الدول هو السماح للتجار من كل الدول بالوصول إلى بلاد الصين وحمايتهم وعدم التعرض لهم بأي سوءٍ، لأن في ذلك ضرر لجميع الدول، بكساد تجاراتها وحرمان مواطنيها من تصريف منتجاتهم المحلية، الزراعية منها أو الصناعية، وفي هذا التصرف الحكيم نجاة من مشكلات كثيرة، هي في غنىً عنها.

الموقع الجغرافي:

الصين هي إحدى الدول الشاسعة المساحة، التي تقع في قارة آسيا، وتبلغ مساحتها اليوم قرابة الـ 9596961كم^2، وتحتل المرتبة الثالثة في العالم، من حيث المساحة بعد روسيا وكندا، وهي أشبه بشبه قارة لتنوع ظواهرها الطبيعية، وتنوع سكانها ولشخصيتها الحضارية المميزة. وتمتد خلال 35 درجة عرضية (18- 53 درجة شمال خط الإستواء) وخلال 61

درجة طولية (74شرقاً إلى 135شرقاً)، ويبلغ طولها 5500كم من الشمال إلى الجنوب، وعرضها 5200كم من الغرب إلى الشرق (i).

وقد نتج عن هذا الامتداد الكبير تنوع في البيئة الطبيعية والحياة البشرية (ii)، فقد ضمت الصين تقريباً بحدود 56 قومية أهمها الهان وهي القومية الرئيسة في الصين يليها المانشو والمغول والأتراك في إقليم سينكايانك الإسلامي المحتل والمياو والهاكا فضلاً عن العرب المسلمين الذين استقروا في الصين عبر تاريخ الاتصال الحضاري الطويل بين العرب والصين، ويتركز أغلب السكان في مناطق السهول والوديان، وقبل الثورة الصناعية كان بحدود 80% من السكان أو أكثر يمتهنون الزراعة (iii)، وتربية الماشية، والباقي يمارسون أعمال صناعية مكملة للزراعة أو متممة لها. لقد ظهرت الصين كوحدة سياسية وحضارية، منذ أكثر من ألفي سنة، ويحق للصين أن تفتخر بحضارة عريقة مستمرة على مدى الأزمان، وللصين تاريخ طويل معقد وحافل ومبهر، ففي العهود التي سادها حكام أقوياء، كانت الصين توسع ممتلكاتها ومناطق نفوذها في آسيا، مكونة امبراطورية عملاقة، وتعود وتنكمش مساحتها إلى أضيق حدود، في عصور الضعف والاضمحلال، وتعد هذه الظاهرة ميزة يتسم بها تاريخ الصين، فقد تكررت في نسق منظم، وبهيئة دورية مرات عدة(iv).

خريطة الصين

ونتيجة لهذا الاتساع والانكماش يمكن أن نميز أمرين مهمين هما:

1- الصين الأصلية China Proper، وتشمل الأراضي الواقعة جنوب سور الصين العظيم، وإلى الشرق من هضبة التبت، وقد كانت على مر الزمن القلب النابض للصين.

2- الصين الخارجية Outer China، وتشمل الأراضي التي هي جزء من الصين الشعبية اليوم مثل هضبة التبت، ومقاطعة سنكيانج (تركستان الشرقية التي احتلتها الصين) وتعرف بتركستان الصينية، فضلاً عن منشوريا ومنغوليا الداخلية في الشمال، والتفريق بين الصين الأصلية والصين الخارجية، له ما يبرره وهو أمر مهم للغاية ولايعتمد على الوضع السياسي، وانما له مبرراته البشرية والحضارية، فلقد فصل سور الصين العظيم، الذي يزيد عمره على ألفي سنة، بين أراضي الصين الأصلية، حيث الزراعة والعمارة والإنسان الصيني المستقر، وبين أراضي الحشائش والأراضي الشبه جافة في شماله، حيث تعيش شعوب غير صينية قليلة العدد، وتشتغل بالرعي المتجول.

وتختلف خريطة الصين الحالية عنها في مطلع القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، في أمرين، **الأول**: أنها كانت تضم أراضي ما يعرف الآن باسم جمهورية منغوليا الشعبية، وقد انفصلت عنها، واستقلت منذ عام 1924م، كجمهورية تابعة للاتحاد السوفيتي السابق، وتدور في فلكه، والأمر **الثاني**: أنها كانت تشمل جزيرة فرموزا أو تايوان، وهي الآن ملجأً للصينيين الوطنيين، وتعرف بالصين الوطنية (v). وتدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية، وتطالب بها الصين حتى الوقت الحاضر.

المعتقدات الدينية:

إنتشرت في الصين معتقدات دينية مختلفة نظراً لإمتدادها الشاسع، وكون شعبها يضم 56 قومية، لكن المعتقدات الأساسية يمكن إجمالها بما يأتي:

1- **الديانة الكنفوشيوسية**: وهي تنسب إلى كونفوشيوس، وهو أحد الفلاسفة الصينيين، ويعني اسمه الرئيس أو المعلم أو السيد، وتقوم فلسفته على الفلسفة المادية، أي عدم الاهتمام بالروح، فلا إله ولا عناية إلهية ولا حياة بعد الموت، وتؤكد على الظواهر الطبيعية والاسرة واحترام الكبار وتقديس أرواح الأجداد، فضلاً عن التحلي بالأخلاق الحميدة وعدم الكذب والاعتدال في كل شيءٍ (vi) .

2- **التاوية (الطاوية)**: تعني كلمة طاو أو تاو الطريق الصحيح، وتنسب إلى الفيلسوف الصيني لاوتزو (604-517ق.م) وتؤكد هذه الديانة على الفكر الذي يجعل من التاو(vii) مجاله في الحياة وتعتقد التاوية بالظواهر الطبيعية أيضاً وتقدس السماء وما فيها وتطلق على امبراطور الصين اسم ابن السماء.

3- **البوذية**: وهي ديانة هندية جاءتها من الهند عبر رحيل الصينيين إلى الهند وتوجه الرهبان البوذيين إلى الصين، فهذه الديانة لم تجد لها أرضاً خصبة إلا في الصين، وتنسب إلى بوذا، وتعني بالحياة المادية أيضاً، وتؤمن بتناسخ الأرواح، وتقديس أرواح الزعماء الأباطرة(viii).

وفيها صلوات تشبه الصلاة الإسلامية، وقد رأيت عدداً من البوذيين يؤدون الصلاة بتوجه ودعاء ثم ركوع سريع وسجود بانبطاح تام على الأرض أمام صنم بوذا، وليس كسجودنا على سبعة أحرف.

الموقع الجغرافي للصين وأثره في نشوء الحضارة الصينية وانتشارها:

نشـأت حـضـارة الصين القـديمة في وادي الواي ـ هو Wei Ho رافـد نهـر الهـوانـغ هو Hwang- Ho، فقد عرف هذا الوادي منذ أكثر من 2500 سنة ق.م، حضارة متقدمة، ربما استفادت من حضارات أقدم منها تقع إلى الغرب من بلاد الصين، لكنها تطورت ذاتياً، ونمت كحضارة مستقلة خاصة بالصين. ونشأت أولى الامبراطوريات وهي امبراطورية الشين أو الجين Chin، فيما بين عامي 206-221ق.م، ووحدت أراضي الصين لأول مرة في التاريخ إلى حدود الصين الداخلية، ولعل اسم الصين قد اشتق من اسم مؤسس هذه السلالة.

ثم أعقبتها سلالة الهان (206 Hanق.م -220م)، والتي امتد حكمها لمدة أربعة قرون، وقد استطاعت هذه الأسرة من بسط سيطرتها على مناطق حوض التاريم Tarim الواقع إلى الغرب من بلاد الصين، بما يعرف اليوم بتركستان الصينية، وكان هذا الوادي هو الطريق الذي انتقل منه الصينيون لإخضاع شعوب وسط الصين وجنوبها، ونشر الحضارة الصينية بينهم. وكان المحصول الرئيس لهذه المنطقة هو الأرز يليه القمح والذرة التي كانت تستخدم غذاءً شعبياً لدى أغلب الصينيين في ذلك الوقت، وقد حمل أباطرة هذه الاسرة على عاتقهم نشر حضارة الصين في مناطق جنوب نهر اليانغستي Yangtze والى التخوم الجبلية لمملكة أنام Annam، وفي عـهـد هذه الاسـرة تمكنت الصين من التـعـرف إلى المناطق الداخليـة لآسيا(ix).

ولو درسنا خارطة الصين الطبيعية لوجدنا في الغرب هضبة التبت التي تقف شامخة بحافة شديدة الوضوح محدودة المداخل، مكونة حداً طبيعياً منيعاً يمنع أي تحرك باتجاه الغرب، أما في الجنوب الغربي فتمتد عدة سلاسل جبلية عالية، تقطعها عدة أودية خانقية تجري بها المياه، وهذه الأنهار كانت سداً منيعاً أمام أي اتصال ببلاد الهند عبر التاريخ. أما في الجنوب فبالرغم من وجود الهضاب العالية، إلا أنها لم تقف بوجه تسرب التيارات الحضارية والشعوب إلى شمال بورما والهند الصينية، وفيما بين بورما في الجنوب ودهليز كانسوKansu في الشمال تقع أراضي جبلية وهضبة شاسعة المساحة، تشكل حاجزاًمنيعاً يستحيل اختراقه، ويمتد بطول كل التخوم الغربية للصين الأصلية (x).

وفي الشمال تقع سلاسل جبال آن شان An - Shan وجبال خينجان Khing-An العظيمة، تظاهرها هضبة منغوليا العظيمة الرحبة، وصحراء جوبي Gobi التي تمثل تيهاً فسيحاً من

الأراضي شبه الجافة، والتي عززت وظيفة الجبال في بلاد الصين، ولم يكن هذا الإطار الجبلي الذي يحيط بالصين سوى طريقين سهلين إليها هما: دهليز كانسو في الشمال الغربي، والذي يؤدي إلى بوابة جيد Gade Gate المشهورة عند يومين Yumen، وتلك كانت تمهد الطريق إلى حوض التاريم السابق الذكر، والطريق الثاني في أقصى الشرق، وكان يؤدي إلى مدينة بكين، والتي أنشأت لتكون قلعة أمامية كي تحرس هذا الطريق (xi).

ورغم هذه الحواجز الضخمة، وما يظاهرها من عقبات من صحاري وسهوب وسط آسيا، فإنها لم تكن عائقاً مانعاً للتوسع الامبراطوري الصيني، ولا للتجار الذين اجتازوها مراراً وتكراراً، فلقد كانت قوافل التجار وجحافل الجيوش تتحرك بين الصين الأصلية والصين الخارجية بين الحين والآخر، خلال ألفي عام خلت، ويبدو أن العقبة الرئيسة في استخدام طرق آسيا كانت بشرية أكثر منها طبيعية، فلقد كانت التقسيمات السياسية والمنازعات التي تحتدم بينها وبين القبائل البدوية الرعوية غير المتحضرة في آسيا الوسطى وفي منغوليا، تشكل الخطر الأكبر على الأسفار والتجارات، كما شكلت كثرة غاراتها على المناطق الحضرية الزراعية، حافزاً على بناء سور الصين العظيم، ليقف سداً منيعاً أمام حرية حركة هذه القبائل (xii).

ولغرض تناول الموضوع ارتأينا أن نقسمه إلى عدة محاور يتناول كل محور منها سياسة كل دولة أو امبراطورية حكمت بلاد الصين من عهد سلالة التانغ وحتى نهاية القرن العشرين.

لقد عاشت الصين قروناً عديدة قبل الميلاد مجزأة مفككة، تحت سيطرة الحكام المحليين، والذين غالباً، ما دخلوا في صراعات داخلية فيما بينهم. أدت إلى تمزيق البلاد أكثر من ذي قبل، لما تخلفه هذه الصراعات من نتائج سلبية. وظلت بلاد الصين تعاني من التجزئة حتى جاءت أسرة شين (كين Chin)، كما ذكرنا ذلك قبل قليل، في سنة 246 ق. م، التي استطاعت أن تقوم بعملية توحيد كبرى لبلاد الصين، وقد تم لها هذا التوحيد في سنة 221 ق. م. لكن الأمور تغيرت عندما سقطت هذه الأسرة في سنة 202 ق. م، فعادت بلاد الصين إلى حالة التجزئة والانقسام حتى مجيء أسرة sui (618-580م) التي أعادت إلى الصين وحدتها. لكن إيغال أسرة سوى sui في التوسع الخارجي، وفي أعمال السخرة أدى بها إلى السقوط، إذ عصفت بها ثورات فلاحية متتابعة، فقامت على أعقابها امبراطورية التانغ (xiii).

1- امبراطورية التانغ 617-907م The Ta'ng Empire

بعد أن عاشت بلاد الصين ما يقرب من الستة قرون، من الفوضى والنزاعات. استطاع شاب جريء، يدعى Li Shin-Min (xiv)، الذي عرف بمقدرته وبكفائته، أن يخلص البلاد مما تعانيه من الفوضى والانقسام، إذ تمكن بمساعدة الترك العسكرية، من احتلال مدينة Chang An عاصمة امبراطورية السوي في نهاية عام 617 م(xv).

وقد كان والدLi Shin -Min، حاكماً عسكرياً لإحدى المقاطعات الصينية، في عهد أسرة سوى، وكان من الموالين لهذه الأسرة، وبعد أن أتم Li Shin -Min احتلال العاصمة Chang An، نصب أباه على عرش الامبراطورية – التي أسسها هو باسم امبراطورية التانغ – عام 618 م، وقام هو بتجريد الحملات العسكرية، التي استمرت أربع سنوات، حيث أخضع فيها أجزاء عدة من بلاد الصين، ثم لم يلبث أن اعتلى العرش في سنة 626 م، وتوج باسم الامبراطور Tai Tsung في 4/ 9/ 626م، وقد استطاع في مدة حكمه التي استمرت 23 سنة أن يعيد إلى الصين سابق مجدها، فضم منغوليا بكاملها إلى الصين سنة 630م، وأخضع أتراك التركستان، وسكان الواحات في صحراء غوبي، واتخذ منهم أنصاراً وعيوناً له، بعدما عرفوا بعدائهم السابق للصين (xvi).

وكان معظم سكان هذه الواحات من رجال الحرب والرعاة ويعيشون على التجارة والزراعة وشكلت منطقتهم نقطة اتصال بين الحضارات الصينية الساسانية، الهندية، العربية وغيرها. ويتكلم سكان هذه المناطق لهجات هندوأوربية(xvii). ونتيجة لهذا التوسع الذي حققته امبراطورية التانغ، فقد كانت مجموعة من المناطق التي خضعت للنفوذ الصيني، تعد الصينيين حكام غرباء عليها، لهذا كان عدد من هذه الولايات، تنتهز الفرص المواتية لشق عصا الطاعة معلنةً الثورة ضد النفوذ الصيني، ففي سنة 645 م، أعلنت مقاطعة كوغوريو Koguryo الثورة ضد امبراطورية التانغ، فتوجهت إليها حملة عسكرية لاخماد الثورة في المقاطعة، وفعلا تمكنت جيوش الامبراطورية من اخمادها، وعد 14.000 فرد من سكان مدينة ليو-تنغ Liao-tung عبيداً، لولا صدور مرسوم امبراطوري أعاد لهم حريتهم، فأخذ منهم 1000 شخص إلى العاصمة جانغ آن Chang-An ليشاهدهم الناس(xviii). ويبدو أن هذا العفو الامبراطوري الذي شمل سكان هذه المدينة، جاء محاولة صفح من الامبراطور عن الثائرين، في محاولة لكسبهم إلى جانبه، ولاسيما أن تاي – تسونغ Tai –Tsung قد عرف بدهائه وسياسته المتسامحة، وإلى كسب أكبر عدد من السكان إلى جانبه.

وقد قام الامبراطور تاي –تسونغ Tai-Tsung بتوحيد القوانين الكنفوشية، وعد بلاطه من أعظم البلاطات التي عرفتها الصين(xix). وأعقبه في حكم الصين الامبراطور كاو– تسونغ Kao– Tsung 649-683 م الذي وسع بلاد الصين، فقد وجه ضربات للترك، وساعد سيلا (كوريا) Silla ضد خصومها، فقد كانت تتقاسم شبه جزيرة كوريا ثلاث ممالك هي كوكولي Kokuli وسيلا Silla وبيكج Paikche، فتحالفت مملكتي كوكولي Kokuli وبيكج Paikche ضد سيلا Silla فاستنجدت الأخيرة بالصين، فأمدتها بقوة عسكرية قضت على مقاومة البيكج Paikche ودحرت جيوشها، فإستنجدت بيكج Paikche باليابان، لمهاجمة السيلا Silla، إلا أن الصين وقفت لهذه المحاولة بالمرصاد، فأحرقت 400 سفينة يابانية (xx) وبذلك أصبحت بلاد كوريا موالية للصين، منذ ذلك التاريخ.

ولكن سرعان ما دب الضعف في هذه الامبراطورية بسبب ضعف الأباطرة ودسائس البلاط، وما بلغته مجموعة من السراري والمحظيات من المكانة والنفوذ، حتى استطاعت إحداهن أن تعلن نفسها امبراطورة على البلاد (xxi)، وهي الامبراطورة Tse-Tie`n وكانت لها شخصية قوية، حيث نظمت الجيوش وقادتها في ساحات المعارك، كما رعت الآداب والفنون (xxii)، وقد استمر هذا الوضع المتدهور حتى استطاع الامبراطور Hs'uan Tsung 712-756 م (93–139 هـ) أن يضع حداً له، حين إعتلائه العرش، فقد بلغت السيطرة الصينية في عهده، أقصى مداها، فدخلت في حدود الامبراطورية من الغرب جبال تيان شان، وجبال البامير، وفرغانة، وطشقند (الشاش) وجلجيت، أما كشمير وبلخ فقد أصبحتا تحت حماية الصين، وتحالفت الصين مع بخارى وسمرقند ضد المسلمين، وبسطت السيطرة الصينية على التركستان بكامله، وأصبحت للصين السيطرة على الممرات والمجازات المؤدية إلى الهند، ومضائق المحيط الهندي، واستطاعت تأمين الحماية للقوافل التجارية (xxiii)، بسيطرتها على الطرق عبر البامير وحوض التاريم (xxiv).

إلا أن هذا التقدم الذي أحرزته الصين في هذه المجالات، وما بذلته من جهد في توسيع رقعة حدودها، قد إنهار فجاءة عندما هاجم أحد القواد الصينيين أتراك طشقند الشاش، على الرغم من ولائهم للصين (xxv)، فقامت مملكة الطاجيق (Tadjik) التركية بدحر جيش صيني في سنة 751م إلا أن الصين سرعان ما استرجعت سيطرتها في أواسط آسيا بعد مدة قصيرة(xxvi).

وفي السنة نفسها 751 م حدثت موقعة نهر تلاس Talas بين المسلمين والجيش الصيني، وقد دحر الجيش الصيني وأسر منه الكثير. وقد سمى العرب هذه الموقعة بموقعة نهر طراز و كان قائد الجيش هو زياد بن صالح أحد قادة الجيش العباسي في خراسان (xxvii) وفي الوقت نفسه الذي حدثت فيه موقعة تلاس كانت الصين تعاني من أزمات وحروب داخلية فقد دحر الخطاى (Khitan) جيشاً صينياً في منغوليا، وقام باقتسام منشوريا مع مملكة بوهاى Po-hai (في كوريا). فضلاً عن تزعزع السيطرة الصينية على مقاطعة يونان Yunnan في جنوب الصين، وقامت مملكة نان جاو Nan Chao بطرد الحامية الصينية من الاقليم (xxviii)، وكلف القضاء على هذه الثورات والاضطرابات التي حدثت في الصين، الامبراطورية الصينية الكثير من الأموال والأرواح (xxix).

وفي سنة 755 م أعلن آن لوشان An Lu- Shan الثورة ضد الامبراطورية، وكان هذا قائداً تترياً، حاز على ثقة الامبراطور هسوان تسونغ Hs"uan-tsung فعينه حاكما على ثلاثة مدن حدودية في الشمال، في مقاطعة هوبي Hopei، فتولى إدارة شؤونها المدنية والعسكرية. وفي شتاء سنة 755 م/138هـ قاد آن لو شان An Lu-Shan 150.000 رجل من هوبي قاصداً مدينة لو – يانغ Lo- Yang، في وقت لم تكن فيه الحكومة مستعدة لمواجهة هذه الثورة، فقامت على عجل بإعداد جيش قوامه 60.000 رجل من غير المدربين في هونان، ولما كانوا غير مدربين على أساليب القتال، فقد دحر الثوار الجيش الامبراطوري وسقطت لو يانغLo Yang، ثم اندفع الثوار باتجاه مدينة جانغ آن Chang-An، ونهبوا المدن الواقعة في الطريق من لو – يانغ إلى جانغ آن، ثم دخلوا جانغ آن، ونهبوا القصر الامبراطوري وأرسلوا محتوياته إلى إقليم هوبي، وانتشرت الثورة في مناطق متعددة من هوبي إذ انضم اليها 200.000 رجل وكذلك في وادي نهر وي Wei، وقد دفعت الحكومة أعداداً من جندها في الحدود الشمالية الغربية باتجاه ممر تونغ كوان Tung Kuan، إلا أن هذا الجيش قد دحر كذلك في سنة 756 م/139هـ، ففر الامبراطور هسوان – تسونغ Hs"uanTsung إلى مقاطعة شسوان Szechuan .(xxx)

ثم قتل قائد الثورة من قبل ابنه، كما تنازل الامبراطور هسوان – تسونغ عن العرش لابنه سو – تسونغ Su Tsung، فقام هذا بتنظيم المقاومة للقضاء على الثورة في الحدود الشمالية الغربية في كانصو، وبمساعدة، الأويغور(xxxi) وسكان التبت تو – فان Tu- Fan ونان – مان Nan- Man والتا – شي Ta- Shi (العرب)الذين وعدهم الامبراطور بالأموال (xxxii)، تم